﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤﴾ [الزمر: 64]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لم يكتفوا بكفرهم بل دعوا الرَّسول نفْسَه إليه، فترقَّوا في باب المعصية

في الآيةِ السّابقةِ لَمّا ذكَر تعالى موقفَ جماعةٍ مِن النّاسِ؛ تجاهلوا آياتِ اللّه الدّالَّةَ على وحدانيَّتِه تعالى، والتي قرَّرتها جملٌ ثلاثٌ في سياقِ السِّباقِ المُباشرِ، مِن جملةِ الخَلْق، وجملةِ الوكالة، وجملةِ المقاليدِ، وكفروا بهذه الآياتِ، فكانوا كُمَّلًا في الخُسْرانِ، ترقَّى الخطابُ في الإخبارِ في هذه الآيةِ، فبيَّنَ فيها أنَّ القومَ الكافرينَ بلَغوا في الفُجورِ مبلغًا تجاوزَ كلَّ حدٍّ؛ لأنَّهم دَعَوا رسولَ اللّه محمَّدًا ﷺ نفْسَهُ إلى عبادةِ غيرِ اللّه، وأمروه بذلك، فأمَرَهُ بأنْ يرُدَّ عليهم، وأنْ يُنكِرَ عليهم ما كان منهم تُجاهَهُ بما يصدعهم به[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المشركون جاهلون باللّه تعالى وبحقِّ نبيِّه ﷺ

في هذه الآيةِ الكريمةِ يأمرُ اللّه نبيَّه ورسولَه محمَّدًا ﷺ أنْ يقولَ لأهلِ الكفرِ - الذين أمروه بأنْ يعبُدَ آلهتَهم، على أنْ يعبدوا إلهَهُ اللّهَ ربَّ العالمينَ - قولًا غليظًا، مُنكِرًا عليهم عبادتَه غيرَ اللّهِ، مِمّا يدخلُ فيه آلهتُهم وغيرُها، أو مُنكِرًا عليهم أمْرَهُم إيّاهُ بذلك، ومُناديًا عليهم نداءَ إهانةٍ وتحقيرٍ بعُنْوانِ الجهل الذي رسخَ فيهم، وتمكَّنَ؛ إذ جهلوا الوحدانيَّة، وجهلوا الحقيقة المحمَّديَّةَ حتَّى تجرَّؤوا، فأمروه ﷺ بالكفرِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

أهلُ العِلْمِ مأمورونَ بالتَّصدّي للدَّعوة إلى غير دين الله تعالى

دلالة الأمر: ﴿قُلۡ﴾:

لَمّا كان الأمر الذي دعا المشركون إليه رسول اللّه ﷺ شيئًا شنيعًا، وهو عبادة غير اللّه تعالى؛ أمَر اللّهُ رسولَه محمَّدًا ﷺ بأنْ يقولَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 545.

لهم: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، أنْ يَرُدَّ عليهم، وأنْ يوبِّخَهُم، ويُعنِّفَهُم، ويُبكِّتَهُم، فما تجرَّؤوا عليه جِدٌّ عظيم، مِن شأنِه أنْ يتصدَّى له رسولُ الله ﷺ وأنْ يتصدَّى له رُسُلُ رسولِ الله، مِن الدُّعاة إلى الله مِن أهلِ العِلْم؛ لأنَّهم الذين مِن شأنهم أنْ يتصدّوا لِمِثْلِ ذلك، هذه دلالةٌ خاصَّةٌ لهذا الأمر هنا، والذي معناه الوجوبُ.

دلالةُ موقِعِ الأمرِ: ﴿قُلْ﴾:

مِن أحوالِ أهلِ الكفرِ ما ينبغي أنْ ينتصِبَ له أهلُ العِلْمِ بالقرآنِ والسُّنَّةِ

ذكَر ابنُ عاشورٍ أنَّ فِعْلَ الأمر ﴿قُلْ﴾ توسَّطَ بينَ التَّفريعِ والمُفرَّعِ عنهُ مُعترضًا بينهما؛ لتصيير المقام لخطابِ المشركين خاصَّةً، بعدَ أنْ كان مقامُ الكلامِ قبلَه مقامَ البيانِ لكلِّ سامعٍ مِن المؤمنينَ وغيرِهم، فكان قولُه تعالى: ﴿قُلْ﴾ هو الواسطةَ في جَعْلِ التَّفْريعِ خاصًّا بهم، وهذا مِن بديعِ النَّظْمِ ووَفْرةِ المعاني، وهو حقيقٌ بأنْ نُسمّيَه: (تلوين البساط)[1]، والانتقالُ مِن العموم إلى الخصوصِ لا يحتاج إلى كلمة: ﴿قُلْ﴾، فلو قال القرآنُ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؛ لحصَل هذا الانتقالُ، ولَما كان هناك لَبْسٌ، ولكنَّ هذا التَّعليلَ الذي ذكره الشَّيخُ الطّاهرُ جيِّدٌ؛ لأنَّه يشير إلى أنَّ هذا الأمر قطَع الكلامَ السّابقَ، واستأْنَفَ معنًى جديدًا، وهذا القَطْعُ، وهذا الاستئنافُ وراءَهُما أنَّ الكلامَ المُستأنَفَ له عندَ صاحبِ الكلامِ شأنٌ أيُّ شأنٍ، وهذا ظاهرٌ في الآيةِ[2].

بلاغةُ الاستفهام:

في الاستفهامِ حرارةُ المعنى مِمّا يليقُ بشدَّةِ الغضب

صُدِّرتْ جملةُ مقولِ القولِ بالاستفهامِ بالهمزةِ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾، والغرضُ منه الإنكارُ، ويردُف على هذا الإنكارِ التَّبْكيتُ والتَّوْبيخُ والتَّجْهيلُ، وما جَرَى في هذا الطَّريقِ مِن المعنى، "وإنَّما أنكر ﷺ هذا الباطلَ بأداة الاستفهام، ولم يُنكره بحرف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 56.

(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 405.

الإنكار، يعني: لم يقُل لهُم: لا ينبغي أنْ تأمروني بذلك؛ لأنّي لن أعبُد إلّا الله، وذلك ليَرْجِعوا إلى أنفسهم، ويَنظروا في الآيات البيِّنات، ويُراجِعوا ما هم عليه، فلعلَّ نفوسَهُم ترتدِع، ولعلَّ لَفْتةً مِن لفَتاتِ الحقِّ تكونُ باقيةً في الفِطْرة، فتُغْيي نفوسَهُم بما تواجَهُ، وترجع، وهذا الطَّريقُ فيه مزيدٌ مِن التَّشْنيع بهم؛ لأنَّه يقولُ لهم: لو راجَعْتُم؛ لارتدعْتُم، ولكِنَّكُم لا تُراجِعونَ[1]، والإنكارُ المُتعلِّقُ بالأمر توبيخيٌّ؛ لأنَّ المُنكَر قد كان، والإنكارُ المُتعلِّقُ بعبادة غير الله تكذيبيٌّ؛ لأنَّ ذلك لن يكونَ أبدًا.

معنى الفاء ودلالة التَّعبير بها:

هذه الآيةُ نتيجةُ المُقدِّمات، فهي المقصودُ بالإثباتِ

قد تقرَّرَ أنَّ آيةَ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ بدايةُ فَصْلٍ جديدٍ مِن المعنى، وأنَّ هذه الجملةَ والجملَ الثَّلاثَ التي بعدَها تمهيدٌ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾، فالفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ﴾ تفريعٌ للكلام المأمورِ الرَّسولُ ﷺ بأنْ يقولَه على هذه الجملِ الأربعِ؛ ليقرع به أسماعَهُم، فإنَّ هذه الحقائقَ المُتقدِّمةَ موجَّهةٌ إلى المشركينَ، فبعدَ تقرُّرِها عندَهم وإنذارِهم على مُخالَفةِ حالِهم؛ لِما تقتضيه تلك الحقائقُ؛ أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بأنْ يوجِّه إليهم هذا الاستفهامَ الإنكاريَّ مُفرَّعًا على ما قبلَهُ؛ إذ كانَتْ أنفسُهم قد خسئت بما جبَهها مِن الكلام السّابق؛ تأسيسًا لهم مِن محاولة صَرْف الرَّسول ﷺ عنِ التَّوحيدِ إلى عبادةِ غير الله، وما كان لهذا الإنكارِ أنْ يكون له هذا الثَّراءُ؛ لو لم تتقدَّمْ هذهِ الجُمَلُ[2]، ويجوزُ أنْ يكون ما بعد الفاء مفرَّعًا على محذوفٍ، وكأنَّ الكلامَ: أبعدَ ما سمعتُم الآيات البيِّنات الموجبةَ للإيمانِ، تُرتِّبون عليها ليس رفض الإيمان فقط، وإنَّما طلب الكفر مِن

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 405.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 56، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 393.

المُؤيَّدِ بها؟ هذه الغايةُ التي ينتهي عندها فُجورُ الفَجَرة؛ لأنَّه ليس بعدَها موقعٌ لفُجورٍ[1].

سِرُّ العدولِ عن ذِكْرِ معبوداتِ الكفّارِ:

هذا العدولُ هو الأبلغُ في إنكار عبادتها والأمرِ بذلك

عبَّر القرآنُ عن الآلهة التي يعبدُها أهلُ الكفرِ والشِّركِ معَ اللّه أو مِن دونه بـ بالغيريَّة في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾، فلم يذكُر القرآنُ آلهتَهُم وأوثانَهُم وأصنامَهُم، وفي هذا كمالُ احتقارِها واحتقارِ عابديها بالانصرافِ عن ذِكْرِها، وفيه معنى الغضبِ عليهم، وفي عمومِ اللَّفظ: (غير اللّه) زيادةُ ذلكَ الغضَبِ، فكلُّ ما سوى اللّه ليس جديرًا بأنْ يُعبَد معَ اللّه أو مِن دونِه، وإنَّما الحقيقُ بذلك واحدٌ فقط، هو اللّهُ الواحدُ الأحدُ.

علَّة التَّعبير بـ: (غير) مادَّةً وصيغَةً:

الأغيارُ كلُّهُم مُتساوون في مغايرةِ الله تعالى ذاتًا وصفاتٍ

في التَّعبير بالغَيْريَّةِ في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى ظهورِ الاختلافِ بينَ الحق سبحانه، وبينَ آلهتهم خصوصًا وما سوى اللّه عمومًا في الذّاتِ والصِّفاتِ، فالمُغايرةُ ظاهرةٌ لكلِّ أحدٍ عاقلٍ مُنْصِفٍ، ولو أنَّ أحدًا تأمَّلَ في كلِّ مخلوقٍ على حدةٍ، مهما عظُم؛ لأبصر أنَّ اللّه غيرُه، فهو تعالى ليس كمِثْلِه شيءٌ، وكذلك لو تأمَّلَ في كلِّ جماعةٍ أو طائفةٍ أو أُمَّةٍ، وهذا فائدةُ صيغة: (غير)؛ لأنَّها تأتي مع المفرد والمُثنَّى والجَمْع، والمُذكَّرِ والمُؤنَّثِ، وإنْ كانت تُجْمَع على: (أغيار).

نكتةُ تقديم المفعول (غير):

الألوهيَّةُ الحقَّةُ هيَ الدّاعيَةُ إلى العبادة وإخلاصِها

أتَى القرآنُ بكلمة: (غير) عقبَ همزة الاستفهام والفاءِ، فدلَّ هذا على أنَّ: (غير اللّه) هو مَحَطُّ الإنكارِ، وتقديمُه وتوجيهُ الإنكارِ إليه يشيرُ إلى معنًى، هو أنَّ (غيرَ اللّهِ) يَفْقِدُ أهليَّةَ ما تدعونني إليه، وليس بمنزلة أنْ يُعبَد؛ لأنَّ الذي يُعبَد هو الَّذي خلَق كلَّ شيء، وهو

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 405، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 23.

على كلِّ شيء وكيلٌ، وهو الذي له مقاليدُ السَّماوات والأرض، ومِثْلُه لا يجوز في العقل أنْ يكون له شريكٌ، وليس غيرُه أهلًا لأنْ يُعْبَدَ، والتَّقْديم مُؤسِّسٌ أيضًا على أنَّ مقام الغَيْرة يقتضي مَحْوَ الأغيار، وأنَّ الغَيْر إذا انْمحَى؛ تبِعَه جميعُ أعراضِه، وتقديمُ محلِّ الإنكار على فعلهم أرجعُ لهم، وتأخيرُ ما سبق مِن الكلامِ أروعُ لهم[1].

موقع جملة: ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾ ودلالتُه:

كيفَ تجرَّؤوا على أكملِ الخَلْقِ، وأمَروهُ بالكُفْرِ

وقعَتْ جملةُ: ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾ اعتراضًا بينَ معمول فِعْلِ العبادة: (غير الله) والفعل: ﴿أَعۡبُدُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم أمروه به عقيبَ ذلك، وقالوا له: (استلِمْ بعضَ آلهتنا نؤمنْ بإلهكَ)؛ لفرط غباوتهم، ولذا نودوا بعنوان الجهل[2]، وفي وقوعِها اعتراضًا لفْتٌ إلى عظيم جُرْمِهم؛ لأنَّ الشَّناعةَ كلَّ الشَّناعة في كلمة: ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾؛ لأنَّ الجرأة والفجور والاستكبار والاستهتار، كلُّ ذلك في أمرِهم للمُؤيَّدِ بالآيات الظّاهرة الباهِرة أنْ يعبُد الطّاغوتَ، ولو قال: (أفغير الله أعبد)؛ لكان كلامًا آخرَ، وكان أقرب إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ [الأنعام: 14][3]، ومِمّا يُقوّي هذا اللَّفْتَ مَدُّ الصَّوتِ في: ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾، فهو أوكدُ في معنى الكلام، وأفزعُ، وأهولُ، وأفظعُ[4].

بلاغةُ الالتفات:

لا بُدَّ مِن مواجهةِ الدُّعاةِ إلى الشَّرِّ والسّوءِ والكفرُ أقبحُ ذلك

في الآية السّابقة كان الحديثُ عن أهلِ الكفر بطريقِ الغَيْبة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، وفي هذه الآيةِ كان يُمكن أنْ يُقالَ: (أفغير الله يأمروني)، ولكنْ صرَف القرآنُ الكلامَ إلى خطابِهم؛ لأنَّه أقعدُ في إرهابِهم، وأشدُّ في اكتئابِهم[5]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 467، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 406، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 447.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 610، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 23.
(3) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 406.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 467.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 467.

وتأسَّسَ على هذا أنْ يقول بعدَه: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، وأفاد الخطابُ أنَّ ثمَّة جازًّا ومجرورًا محذوفًا بعد فعلِ الأمر ﴿قُلْ﴾، أي: (قل لهم: أفغير الله تأمروني أعبد).

علَّة التَّعبير بالأمر مادَّةً وصيغةً:

استحكم الكفر في نفوسهم وقلوبهم؛ حتَّى صاروا دُعاةً إليه

عبَّر القرآنُ بالأمرِ في قولِه تعالى: ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ دونَ الطَّلبِ أو الدَّعوةِ ونحوِ ذلك - وهذا الأمرُ ضِدُّ النَّهْيِ - تصويرًا لكمالِ رغبةِ الذين كفروا بآيات الله في كفرِه ﷻ وعبادتِه ما يعبدونه مِن دون الله سبحانه، وحقَّقَ القرآنُ ذلك بالعُدولِ عن نَظْم الأمر ماضيًا إلى نَظْمِه مضارِعًا؛ لأنَّهم قد أمَروه قبلَ هذا الخطابِ، فالظّاهرُ أنْ يُقال: (أمرتموني)؛ وإنَّما قال: ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهُم مُصِرّونَ على موقفِهم، وأنَّ شأنَهُم أنْ يُجدِّدوا أمرًا له ﷻ بما أمروه به قبلَ الخطابِ، وأنْ يَسْتَمِرّوا في ذلك وعليه.

التَّوجيه البلاغيُّ لقراءاتِ قولِه: ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾:

الأمـرُ بالكفرِ ذِروةُ المعصيةِ والجرأةِ على الله الخالقِ؛ فلهذا تعدَّدَت قراءتُه؛ احتفالًا به

فقرأ المدنيّان بتخفيف النون (تأمروني)، وقرأ ابن عامر بنونين خفيفتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة (تأمرونَني)، وقرأ الباقون بنون واحدة مشدَّدة ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾[1].

وفي قراءةِ الإدغامِ ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ مَدٌّ ناتجٌ عن الإدغام، ومَدُّ الصَّوتِ أوكدُ في معنى الكلامِ، وأفزعُ، وأهولُ وأفظعُ، ولعلَّ الإدغامَ إشارةٌ إلى أنَّهُم حاولوه ﷻ في أمْرِ آلهتِهم على سبيلِ المَكْرِ والخِداعِ[2].

وفي قراءة إثباتِ النّونِ (تأمروننني) إشارةٌ إلى كمالِ رغبتِهم في تحقيقِ المأمورِ به، وفيه أيضًا: إشارةٌ إلى صبرهم وطولِ نفَسِهم في دعوته ﷻ إلى الكفر والباطل، وهذا مُؤسَّسٌ على امتلاءِ نفوسهم

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 363، 364.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 467.

وقلوبهم بالكفر وبكونه شيئًا حسَنًا، والذي تأسَّسَ عليه أمرُهم إيّاه ﷺ به، وهذا الامتلاءُ صورتُه إثباتُ النّونِ.

وفي حذفِ النّونِ على قراءة: (تأمروني) إشارةٌ إلى ضعفِ هذا الأمر وآمِرِه، ونقصهما، وحقارتهما، وبطلانِ الأمرِ وبطلانِ غايةِ الآمِرِ.

علَّةُ التَّعبير بالعبادة مادَّةً وصيغةً:

الخسيسُ مَن وقَع في منقصة فأحَبَّ أنْ يقَع الشَّريفُ فيها

قوله تعالى: ﴿أَعْبُدُ﴾: هو ناصِب: (غيرَ)، وإنَّما عبَّر القرآنُ بالعبادةِ دونَ الدُّعاءِ (أدعو)؛ لأنَّ الدُّعاءَ يُصَوِّرُ إقبالَ العابِدِ الدّاعي بكُلّيَّته على ما يعبدُه، أو ما يُراد له أنْ يَعْبُدَه، والعبادةُ أعمُّ من ذلكَ، وهم يأمُرونَه ﷺ بأصلِ العبادةِ، فالأهَمُّ عندَهم أنْ يُشارِكَهُم في عبادةِ آلهتِهم، وليس نوعًا مخصوصًا مِن أنواعِ العبادةِ، وفي نظمِه مضارعًا إشارةٌ إلى عظيمِ رغبتهم في تحقُّقِ ما أمَروه به ﷺ كأنَّهم يريدونه أنْ يُجدِّدَ ذلك، ويستمرَّ عليه، ويُداوِمَ عليه، فليس رغبتُهم في أنْ يُصيب الكفرَ - حاشا مقامه الشَّريف - ولو مرَّةً واحدةً، وإنَّما في إدامةِ ذلك واستمرارِه.

نكتةُ التَّقديم:

في التَّقديم فائدةُ ترابُطِ المعاني وتماسُكِها، وبيانُ قَصْدِ السّياقِ

قدَّم القرآنُ جملةَ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾ على جملة: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؛ لأنَّها الألصقُ معنًى بما قَبْلَه مباشرةً: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، فمِن وجوه المعنى فيه تفريعُ الفاء ما بعدها على مجموعِ الجملِ الأربعةِ قبلَها، وأمّا قولُه تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؛ فهو راجِعٌ في الأساسِ إلى الجملِ الثَّلاثِ المشتملةِ على الدَّلائلِ التي جهلوا ما تفيدُه، مِن الوحدانيَّةِ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ - ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ - ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي هذا التَّقديم دلالةٌ على شدَّة الغضبِ؛ لأنَّ جملةَ النِّداءِ مِن شأنِها أنْ تأتيَ تمهيدًا لِما بعدَها، فكأنَّ الأصلَ أنْ يُقال: (أيُّها الجاهلون أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون)،

فكان في المُبادَرَةِ إلى الإنكارِ عليهم ما كان منهم تُجاهَ النَّبيِّ ﷺ دالًّا على قوَّة الغضبِ وشِدَّتِه.

بلاغةُ النِّداءِ:

خطابُ الجاهلينَ قد يكونُ خطابَ إيـجـازٍ غضبًا عليهم

قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ مِن فرائد سورة الزمر، فلم يتكرَّر في القرآنِ العظيم، وهو أسلوبُ نداءٍ، حُذِفَت فيه أداةُ النِّداءِ، فتُقدَّرُ بـ: (يا)؛ لأنَّها لنداءِ البعيدِ، وهؤلاءِ الجاهلونَ المُنادَوْنَ - وإنْ كانوا قريبينَ مِن المُنادي حِسًّا - بعيدونَ منه وعنه عقيدةً وعملًا، فهُم أبعدُ ما يكونون عن الحقِّ المُبينِ، وهم في غفلةٍ في غاية العظمةِ؛ لأنَّهم صاروا دُعاةً إلى الكفرِ الذي ترفضُه الحقائقُ الثّابتةُ الظّاهرةُ الباهرةُ، وتجرَّؤوا على النّورِ المحمَّديِّ الكاملِ المُكمَّلِ ﷺ بدعوته إلى عبادة آلهتهم؛ فلذلك نودوا، وكان النِّداءُ بـ: (يا)، وبولِغَ في إيقاظهم وطلبِ إصغائهم إلى الخطاب؛ لعلَّهم يهتدون بهاء التَّنْبيهِ، وفي حذفِ (يا) دلالةٌ "على المسارعة لقرْعِ أسماعهم بهذا الخطاب؛ لَمّا زادوا في فُجورِهم، وزادوا في عُتوِّهِم، وكانوا كقوم فرعونَ الذين تعهَّدَهُم الرَّجُلُ الصّادقُ المؤمنُ، وحدَّثَهم برِفْقٍ وحُبٍّ وإخلاصٍ، وأخيرًا دعوه هم إلى الشِّرْكِ"[1]، وفيه أيضًا: إشارةٌ إلى كمال الغضبِ عليهم، كما يوجَزُ البيانُ في خطابِ الذي تضيقُ منهم الصُّدورُ، وتنقبضُ النُّفوسُ، ولله المَثَلُ الأعلى، وإنْ كان هذا صادقًا عليهم وعلى رسولِه ﷺ والمُنادَى هنا نكرةٌ مقصودةٌ: (أيُّ) مبنيٌّ على الضَّمِّ، و﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ بدلٌ منه، وفي مجيء ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ البيانِ بعد: ﴿أَيُّهَا﴾ الإبهامِ إشارةٌ إلى أنَّهُم يُعرَّفونَ بالجَهْل، وبه يشتهرونَ، وفي هذا كلُّ ذمٍّ وتقبيحٍ لهم، وتشهيرٍ بهم.

علَّة التَّعبير بالجهل:

لَمّا كان الأمرُ بشيءٍ إنَّما يكونُ مُؤسَّسًا على العِلْمِ به، بل الإحاطةِ به،

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 404.

وصفهم بالجهل غاية الغضب عليهم والرَّفْض لهم والانصرافِ عنهم

وكانَتْ عبادةُ غيرِ اللّه غيرَ ثابتةٍ، فلا يوجَدُ لها دليلٌ يُثْبِتُ صِحَّتَها، بل توجَدُ دلائلُ على نفي صِحَّتها، وإثباتِ بطلانها، فكانَتْ أجهلَ الجَهْلِ، وكانَ الجَهْلُ مَحَطَّ كلِّ سُفولٍ؛ وصفَ القرآنُ المُحدَّثَ عنهم بالجهل في قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، والجهلُ هنا ضِدُّ العِلْم، وهو التَّقدُّمُ في الأمورِ المُنْبهمة بغير عِلْم؛ لأنَّهُم جهلوا دلالةَ الدَّلائلِ المُتقدِّمة، فلم تفد منهم شيئًا، فعموا عن دلائل الوحدانيَّةِ التي هيَ بمَرْأى منهم ومَسْمَع، فجهلوا دلالتَها على الصّانع الواحد، ولم يَكْفِهم هذا الحَظُّ من الجَهْلِ حتّى تدلّوا إلى حضيضِ عبادةِ أجسامٍ من الصَّخْر الأصَمِّ، وإطلاقُ الجهل على ضِدِّ العِلْم إطلاقٌ عربيٌّ قديمٌ[1].

وفي ندائهم بوصف ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ فائدةٌ أُخْرَى، وهيَ تقريعُهُم بعدَ أنْ وُصِفوا بالخسرانِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، فجُمِع لهم بين نقصِ الآخرة ونقصِ الدُّنيا[2]، وإذا كانَ في وصفِهم بالجهلِ إيماءٌ إلى الغضبِ الإلهيِّ؛ فإنَّ في إثباتِه بصيغةِ الإيجاب ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ الموجَزَةِ - دونَ صيغةِ السَّلْب: (غير العالمينَ) المُطْنبَة - إشارةً إلى شِدَّةِ ذلك الغضب.

دلالةُ الاسميَّة:

الأمرُ بالمعصيةِ كمالٌ في المعصيةِ

نظَم القرآنُ وصفَ الذين كفروا بآياتِ اللّه بالجهل اسمًا في قوله تعالى: ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على إصرارِهم على الكُفْرِ بآياتِ ذي الجلالِ سبحانه، فكانوا راسخينَ عريقينَ كاملينَ في الجهل، من أهلِ المستوى الأعلى من مستوياته، ووصولُهم إلى تلك الدَّرجةِ التي تجاوزوا فيها الكفرَ إلى الأمر به، بل إلى أمرِ رأسِ أهلِ الإيمانِ والإسلام، وسيِّد الأنبياءِ والرُّسُل، محمدِ بن عبد اللّه ﷺ إنَّ وصولَهُم إليها يستوجب الغضب الشَّديدَ والخسرانَ العظيمَ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 467، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 56.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 56.

مَـن أمَـر غـيرَه بـالـكـفـر؛ كـان الـجـهـلُ بـالله طبْعًا ودَيْدَنًا لهُ

سِرُّ حذفِ مفعول ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾:

فِعْلُ الجهل يتعدَّى بنفسِه، ويتعدَّى بواسطةِ حرفٍ، يُقال: جهِل فلانٌ حَقَّ فلانٍ، وجهِل فلانٌ عَلَيَّ، وجهِل فلانٌ بهذا الأمرِ[1]، ولكنَّ اسمَ الفاعلِ منه، والذي يعملُ عملَه، لا متعلِّق له في قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، وإنَّما حُذِفَ مفعولُه؛ "لتنزيل الفِعْل منزلةَ اللّازم، كأنَّ الجهلَ صار لهم سَجيَّةً، فلا يفقهون شيئًا، فهُم جاهلون بما أفادَتْه الدَّلائلُ مِن الوحدانيَّة التي لو علِموها؛ لَما أشركوا، ولَما دعوا النَّبيَّ ﷺ اتِّباعِ شِرْكِهم، وهم جاهلون بمراتبِ النُّفوسِ الكاملةِ؛ جهلًا أطْمعَهُم أنْ يَصْرِفوا النَّبيَّ ﷺ عنِ التَّوحيد، وأنْ يستنزلوه بخُزَعْبلاتِهم وإطماعِهم إيّاهُ أنْ يعبدوا اللّه؛ إنْ هو شاركَهُم في عبادةِ أصنامهم، يَحْسَبون الدّينَ مُساوَمةً ومُغابَنةً وتطْفيفًا"[2]، ونتج عن تنزيل اسم الفاعل المتعدّي منزلةَ اللّازم مَيْزةُ موافقةِ الكلمة: ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ للفواصلِ قبلها وللفواصلِ بعدَها.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جهل)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 57 - 58.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 57.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»